خط الدفاع الثانى ؟

تنتاب الأفراد والأسرات والأمم نوائب وتحل بها محن ، والمقاومة عنصر من عناصر الطبيعة البشرية ، فهى حينئذ تقاوم وتقاوم حتى تضعف مقاومتها ؛ فاذا لم تكن أعدت لها خطا ثانيا من خطوط الدفاع ، فانها عندئذ تتعرض للانهيار التام ، وللتفكك والانحلال .

وخط الدفاع الثانى فى النفس الإنسانيـة الصحيحة هو روح الدعابة والمرح . من هـذا الخط تنشأ قوة جديدة ، ومنها ينبعث الرجاء والتفاؤل ، إذ أن الدعابة تفسح للنفس مجالا تستعيد فيه قوتها بعيدا عن ضغط الحوادث . وقد تجد فى هذه الفسحة حلا جديدا أو خطة جديدة للمقاومـة المجدية . كذلك تصنع الجيوش حين تعدلها خطا ثانيا من خطوط الدفاع ترتد اليه ، وتكسب بعض الوقت عنده ، حتى تلم شتاتها وتستجمع قوتها للهجوم أو للصمود .

وكل جماعة وكل أمـة فى حاجة إلى هذا الخط الثانى تخزن فيـه رصيدا من الرجاء والأمل ، وعدتها من المقاومـة والتماسك ؛ ولا سيما فى هذه الظروف الاستثنائيـة التى تمر بالبشر .

والعنصر الأنجلوسكسونى يمتاز بهذا الرصيد ، فهو يتمالك أعصابه فى أحرج الظروف ، ولا يفقد دعابته وتفاعله فى أشد الملمات . وفى اللحظة الأخيرة يجد هذا الرصيـد فينفق منـه ويروح عن أعصابه حتى يجد فرصة جديدة .

قرأت أن أحد المصارف فى انجلترا وقع فى أزمة تهدد كيانه ، وقـد اجتمعت لجنة فيها مندوب من الخزانة الانجليزية للبحث فى موقف هذا المصرف . وفى أثناء بحثها كان مديره يعرض الحل بعد الحل فيرفضه مندوب الخزانة ، والمدير فى حالة عصبية شديدة حتى تكهرب جو الجلسة . وبينما هذه الأزمة مستحكمة كان أحد المجتمعين مكبا على ورقـة والقلم بيـده منهمكا فى تخطيطات وكتابات ، ثم رفع رأسه فتجه اليه الجميع ينتظرون عنـده حلا ، فاذا الورقة تحوى صورة « كاريكاتورية » للمدير !

وكان هذا حلا حقيقيا فقد انفرجت الشفاه وابتسم الجميع ، وضحك المدير ، واستراحت

وللمصريين — على طريقتهم — هذا الخط الثانى من خطوط الدفاع فى النكتة المصرية . لقد كان منشأ هذه النكتة ، فيما أعتقد أن المصريين وهم شعب متمدن عريق ابتلوا بمستعمرين أقل منهم مدنية وعراقة فى جميع العصور ، ووجد الشعب المصرى نفسه — مع ذلك — عاجزا عن المقاومة بالقوة لظروف خارجة عن ارادته ، فلجأ الى خط الدفاع الثانى وهو النكتة يرسلها على هؤلاء المتجبرين فتحقر مقامهم وتبرز عيوبهم ، وتشفى غل هذا الشعب المحبوس .

ولكن الخطر أخذ ينبع من خط الدفاع ! ذلك أن طول الكبت وطول الاستعمار وطول التشفى بالنكتة ، وبالنكتة وحدها ، جعل هذه الدعابة تتحول شيئا فشيئا ، ومع اليأس من جدوى المقاومة ، إلى استهتار وعدم اهتمام .

والاستهتار شر ما يصاب به الأفراد والأمم على السواء ، لأن معناه أن ينفضوا أيديهم من الوسائل الجدية ، وأن تغدو الحياة فى نظرهم هزلا فى هزل وعبثا فى عبث ، وأن يستسلموا لكل ما تأتى به الظروف بلا مقاومة ولا كفاح .

واذا كانت روح الدعابة مطلوبة لأنها تهيئ للنفس الانسانية بعض الوقت تسترد فيه قوتها وتجد لها شيئا من وسائل المقاومة الجديدة ، فان روح الاستهتار شر محض ، إذ هى تصد النفس عن التفكير فى وسائل المقاومة ، بل عن فكرة المقاومة من أساسها .

فنحن إذن فى حاجة إلى روح الدعابة الحقيقية ، وليس ما نراه من عدم اهتمام المصريين بالأزمات هو هذه الروح ، وإنما هى روح الاستهتار التى تدعهم ساكنين لاهين ، والأزمات تطرق الأبواب .

يجب أن نهتم ، وأن نوسع دائرة اهتمامنا حتى تشمل ما هو أبعد من أشخاصنا وحياتنا اليومية ، ولكن ينبغى ألا نجزع وألا نفقد تماسكنا وهدوءنا ومرحنا كذلك .

إن العالم كله فى هذه الأيام يتعرض لامتحانات شديدة ، وهناك كابوس عام يضغط على أعصاب الناس ، وفى مثل هذه الحالات يتعرض الأفراد — ولا سيما العصبيون منهم — لأمراض نفسية عنيفة . وكل فرد الآن — مهما كان تماسكه لأعصابه — يتأثر بالحالة العامة . حالة القلق وعدم الاستقرار والذعر وانتظار السوء فى كل لحظة من اللحظات .

وخير ما يصنعه الأفراد لتخفيف ضغط هذا الكابوس هو ، كما قلت ، التحصن فى خط الدفاع الثانى ، ومما يساعد على الارتداد بنظام إلى هذا الخط ألا يستخدم الإنسان خياله فى تصور المآسى المقبلة ، ومن الحسنات فى هذه الأيام أن يكون المرء قصير النظر إلى حد ما ! ، فحينما يرى فى تسع دقائق الحياة القريبة منه دون أن [illegible]

الحوادث المقبلة ، خيفة أن يجسم له خياله هذه الحوادث ويلونها بلون أسود يفقده القدرة على النظر الصحيح للأمور .

وإذا كان قصر النظر فضيلة فى هذه الأيام بالنسبة للأفراد ، فليس هو كذلك طبعا بالنسبة للشعوب والحكومات ، فكل دقيقة تمر ذات تأثير حاسم فى مجرى التاريخ ، ومن الواجب أن تمد الشعوب وحكوماتها أبصارها إلى ما وراء الأسوار ، وأن تحسب حسابا لكل فرصة ، واستعدادا لكل احتمال .

أما الأفراد فمن رحمة الله بهم ألا يستخدموا خيالهم وألا يجسموا حوادث المستقبل .

وخير ما يتعزى به الانسان ويستمد منه الرجاء أن يعلم أن الانسانية أشد وأقوى من أن تزعزعها هذه العواصف . ولقد تعرضت ألف مرة للانهيار ثم تماسكت ونهضت وسارت بخطوات ثابتة إلى الأمام .

من القرآن الكريم :

"وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ"

* * *

"قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ" .